ناجي العلي: سحر الكرامة

الشاهد والشهيد

خالد حوراني

لن تؤخذَ إلى الأرشيف

كائن غريب، يحبّ المجازفة، منذورٌ للمناكفة ، مفتوحُ العينيْن، يتحدّى، مسؤولٌ عن مصيره، مغامرٌ، مشدودٌ دائمًا إلى ما يعتقده الحقيقةَ، غائبٌ برحمة الله وقدرته.

كأنّ ما يَحْدث الآن لم يكن ليَحْدث لولا هذا الغياب: غيابُ مَنْ يسلّط الأسئلةَ العاديّةَ والقاسيةَ، غيابُ مَنْ يعيش ويرى ويتألّم ويقول، غيابُ الشاهد رغم حضور الشهيد. هل نعود إلى رسوم ناجي العلي لكي نستطيع أن نشاهدَ ـ ولو من بعيد ـ ونحلّلَ ما آلت إليه أحوالُنا وتقرُّحاتُ جرحنا المفتوح؟

الرسومُ التي انطبعتْ في ذاكرة القارئ والمشاهد العربيّ لا تزال تتحرّك على مسرح الأحداث، بطول العمر أحيانًا وأحيانًا بالمضمون. وكأنّ ما نَسْمعُه الآن من صرخات وآلام واقعيّة ما هي إلاّ رجعُ الصدى لآلام تلك الرسوم، التي تَصْرخ وإنْ تراجعتْ قدرتُها على السخرية إلى حدّ كبير: فقد اختلط الناكبُ بالمنكوب، واختلط الدمُ بالعجين، وانطفأتْ لوهلةٍ الشمعةُ التي كانت تضيء ـ ولو قليلاً ـ حلكةَ الليل الطويل.

زادت أنقاضُ البيوت، بل أصبحت الدبّاباتُ تَعْبر التلالَ والشوارعَ في مخيّم جنين. وزادت المقابرُ الطارئة، من دون أن يتمكّن أحدٌ من وضع الشاهد على القبور لنقرأ بعدَ الفاتحة اسمَ القاتل والمقتول.

رغم ذلك تَصْلح أعمالُ ناجي العلي للعرض ـ وهي طازجةٌ ومفارقةٌ وشقيّة إلى أقصى حدّ ـ فوق أنقاض مخيّم أو في شوارع دولةٍ بين قوسين مفروض عليها منعُ التجول. للأسف لاتزال الرسومُ صالحةً: فهي ليست تعبيرًا حيّاً عن الماضي فقط، وإنّما هي تعبير ميتٌ عن الحاضر اللعين، وربما عن المستقبل إلى حين. وهي لن تؤخذ إلى دُور الأرشيف أو تُحْفظَ في التاريخ لتستريحَ وتريحَ، بل ستبقى تُفْصح وتبوح. ستبقى تقول الجنونَ والفاجعةَ.

صورتنا القاهرة

ناجي البسيط والعاديّ لم تخيِّبْ الحياةُ آمالَه كما تَفْعل مع أنصاف الموهوبين، وهي تتجاوز إنتاجَهم وتؤشّر على محدوديّته، بل أنصفَتْه وظَلمتْ شعبَه المسكينَ. ولم تُتِحْ لحنظلة اختصارَ روح ناجي وأيقونته. لم تُتِحْ له اللعبَ مع الأولاد كما يحلو للصغار، فيصبح كأيّ شخصيّة كاريكاتوريّة أو كرتونيّة في العالم الكبير: تتشقلب وتنطنط وتتزيّن وتزهو بالأزياء أو الأسلحة. على أيّ حال حالت الظروفُ دون أن تَفْعل هذه الفنيّةُ النادرةُ فعلتَها في تكوين الشخصيّات والرسوم التي تخترعها الشعوبُ في تاريخ وعيها وهي تعلّم الصغارَ والكبارَ حكمةَ الحياة وأصولَها. بقيت الشخصيّات، وبقي حنظلة، أسيرَ القضيّة الوطنيّة وأسيرَ طبقته المحرومة والفقيرة والمدفوعة بحب الحياة إلى التضحية.

يختفي خلف رسوم ناجي العلي مزاجٌ وطنيٌّ بأكمله معذور ومهموم ومشبوح دائمًا عند نقطة الكارثة. نَعْرف أنّ فلسطين محورُ رسومه القاسية، وهي المؤشّر على ما في مشروع العرب السياسيّ والثقافيّ والزراعيّ والطبيّ والعلميّ والرياضيّ وإلى آخره من قُصُور. وهو القليلُ الكثيرُ الذي يَرْفض المساومة: القليلُ الذي يتجرّأ ويقولُ ما يَجْلب المتاعبَ والهمومَ والطلقةَ الغادرة؛ والكثيرُ بالأغلبيّة الصامتة.

جموحُ ناجي العلي وقسوتُه أمران مفهومان على المستوى الإنسانيّ؛ فهو لا يريد الحقَّ إلاّ كاملاً، ولا يريد العدلَ إلاّ مطلقًا. وهو، كفنّانٍ قديرٍ وملْهَم، ليس سياسيّاً بالضرورة ليَحْسبَ ويَطْرحَ ويوازنَ ويصالحَ ويعادِيَ ويفاوضَ وينتصرَ ويناورَ ويَهْزمَ ويغامرَ ويقاومَ ويساومَ. ناجي ليس سياسيّاً، بل هو فنّان. قلبُه **هو** الذي تكلّم، ومعه كلُّ الحقّ.

رام الله

خليل حوراني

فنّان فلسطينيّ. راجعْ رسمَه المهدى إلى ناجي في مكان آخر من المجلّة.

خالد حوراني

(جريدة السفير، ١٢/١٠/١٩٨٢)

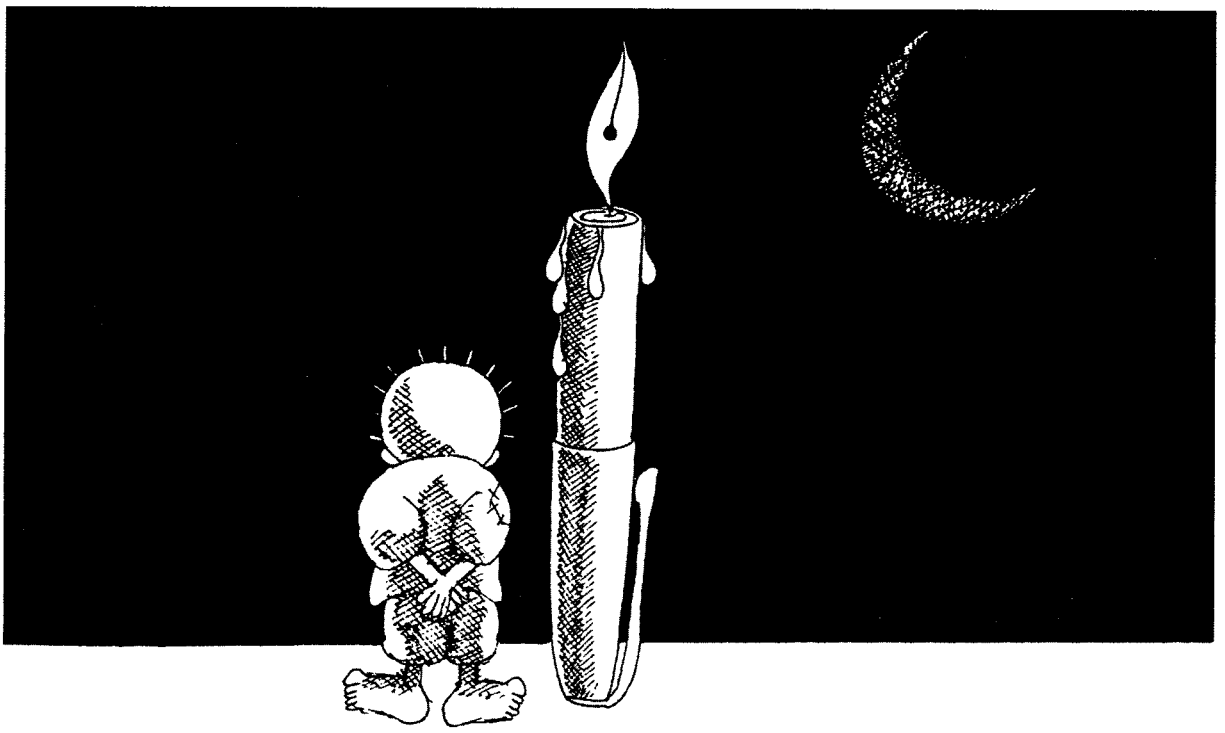

انطفأتْ، لوهلة، الشمعة التي كانت تضيء ـ ولو قليلاً ـ حلكةَ الليل الطويل

(جريدة القبس، ١٨/٧/١٩٨٤)

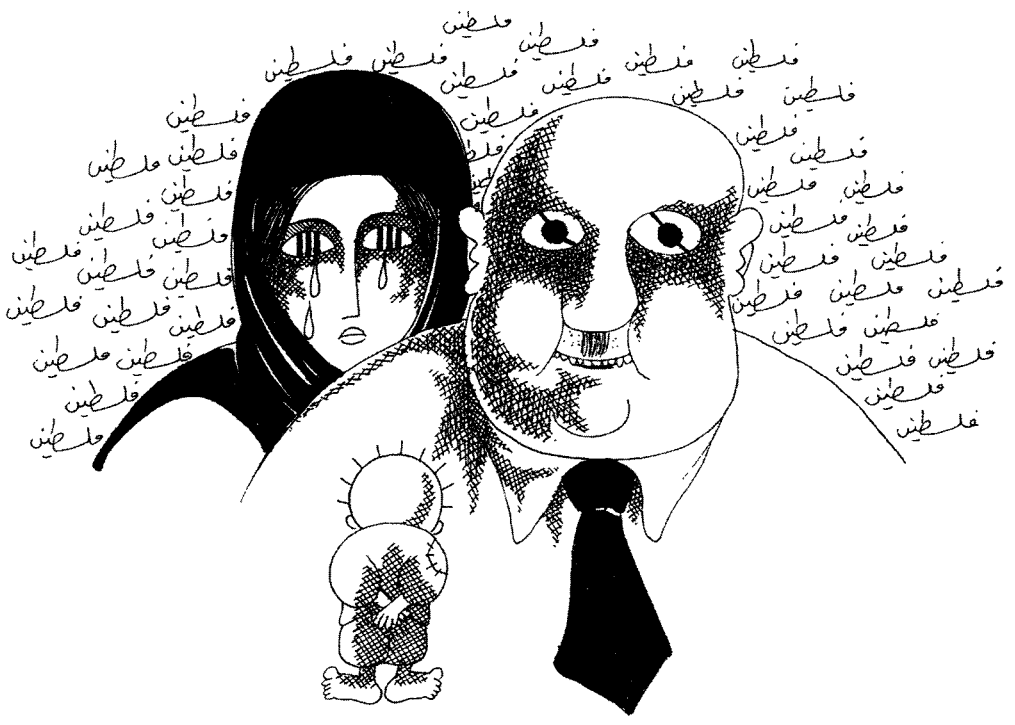

بقي حنظلة أسيرَ القضية الوطنيّة وأسيرَ طبقته المحرومة والفقيرة